٩ - الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد (سنة ١٨٦) بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده في يوم الخميس (٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧) (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفي لست بقين من ذي الحجة (سنة ٢٣٢) (أغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر (و١٥ يوماً وسنه ٣٦ سنة).

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه إلا في مملكة الروم بالقسطنطينية فإن توفيل مات في السنة التي توفي فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان إذ ذاك صبياً فكانت أمه بدوره تقوم مقامه وفي خراسان حيث توفي عبد الله بن طاهر (سنة ٢٣٠) ولي بعده ابنه طاهر بن عبد الله.

وزراء الواثق:

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيراً عليه في حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفّر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد أبيه.

الجيش:

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت في حياة أبيه إلا أن قدم المماليك التي اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذي توّجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان (سنة ٢٨٨) وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التي كانت حمى ما يستطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذي كان هناك وكيف أزيل.

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عدداً وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهي حرة بني سليم فاجترؤوا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤوا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالجارنياس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة (سنة ٢٣٠) وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمي فوجه إليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبري وكان الواثق أرسله للمدينة في (٢٠٠) من الشاكرية لئلا يتطرقها الأعراب فتوجه إليهم حماد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد

بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحد أن يسلك تلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه إليهم الواثق بغا الكبير في الشاكرية والأتراك والمغاربة فشخص إلى حرة بني سليم وعلى مقدمته طردوش التركي فلقي بني سليم بقراهم وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا إلى الأمان على حكم الواثق فأتوه واجتمعوا إليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة (سنة ٢٣٠) فحبسهم بها وشخص إلى مكة حاجاً. ولما انقضى الموسم انصرف إلى ذات عرق ووجه إلى بني هلال من عرض عليهم مثل ما عرض على بني سليم فأقبلوا فأخذ من مردتهم وعتاتهم نحواً من (٣٠٠ رجل) وخلى سائرهم ثم انصرف إلى المدينة وجعل المحبوسين من بني هلال مع إخوتهم من سليم وجمعهم جميعاً في دار يزيد بن معاوية في الأغلال والأقياد وعدتهم نحو (١٣٠٠ رجل) وسار هو إلى بني مرة المحبوسين فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاؤوهم واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج فباتوا محصورين وفي الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الأعراب في أزقة المدينة ممن دخل يمتار أو يزور. كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجداً شديداً.

أما ما فعله ببني مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فإنه لما قاربهم أرسل إليهم رجلاً فزارياً يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزاري حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكاً ولم يستأمن إليه إلا القليل وهرب الباقون إلى موضع من البلقاء من عمل دمشق. ثم صار إليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا إليه استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص إلى ضرية لطلب بني كلاب ووجه إليهم رسله فاجتمع إليه منهم نحو (٣٠٠٠ رجل) فاحتبس من أهل الفساد نحواً من (١٣٠٠ رجل) ثم قدم بهم المدينة في رمضان (سنة ٢٣١) فحبسهم بها ثم شخص إلى مكة حاجاً ورجع إلى المدينة بعد حجه فأرسل إلى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا في البلاد فوجه في طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد.

وفي (سنة ٢٣٢) أمره الواثق أن يذهب إلى غزو بني نمير لما كان من عبثهم وفسادهم في الأرض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقي منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسر نحواً من (٤٠٠) ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه

ويشتمون رسله ويتفلتون إلى حربه فسار بغا إليهم من مرأة في أول صفر (سنة ٢٣٢) حتى دخل بخيله وأرسل إليهم أن ائتوني فاحتملت بنو ضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله بأهله فأرسل إليهم سرية لم تدركهم ثم إنه سار حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الأبان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفري فجعلوا يقولون له: يا محمد بن يوسف قد واللّه ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم واللّه لنرينك العبر. ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو (٢٠٠ نفس) ليغير على خيل لهم وجدوها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على شرف الانكسار إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذي وجهت إليه في ظهور بني نمير فنفخوا في صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم ورجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل. وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤوس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة في ذي القعدة (سنة ٢٣٢) وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله من المدينة من بني كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعاً إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعاً نحو (٢٣٠٠ رجل).

نكبة الكتاب في عهد الواثق:

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذي من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له أحدهم إن سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا في إنفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع لهم بها ومنهم رجل يقال له أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ... ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد: أجل واللّه إنما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد

الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق: صدق واللّٰه جدي إنما العاجز من لا يستبد وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذي ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم في حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم.

أحمد بن إسرائيل	٨,٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠,٠٠٠	دينار
الحسن بن وهب	١٤٠٠٠	دينار
أحمد بن الخصيب وكتابه	١,٠٠٠,٠٠٠	دينار
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠,٠٠٠	دينار
نجاح	٦٠,٠٠٠	دينار
أبو الوزير	١٤٠,٠٠٠	دينار
	١,٧٢٢,٠٠٠	دينار

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم.

وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة إذ لم يكن هناك دقة في المحاسبات فإذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة في وقت قريب وتلك الثروة لا تقوم بها أرزاقه التي يتقاضاها حكم الخليفة قطعاً أنه خائن ولا يجد أمامه إلا تلك المصادرة التي لا نظام لها.

العلاقات الخارجية ـ الفداء بين المسلمين والروم:

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى وكثيراً ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذراً من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد على نهر اللامس قريباً من طرطوس فودي فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله في عهده أيضاً فودي بألفين وخمسين.

وقد كان الفداء الثالث في عهد الواثق (سنة ٢٣١) أرسل ملك الروم إلى الواثق رسلاً يسألونه أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عدداً كبيراً وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء (سنة ٢٣١) على نهر اللامس وكان عدد من فودي به من المسلمين (٤٦٠٠) منهم (٦٠٠) نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة

obeikandi.com

نحو (٥٠٠) فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً وقد عقد المسلمون جسراً على النهر وعقد الروم جسراً فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم ويرسل الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل في يده (١٠٠) نفس ليكون له عليهم الفضل استظهاراً ومن غريب ما حصل في هذا الفداء أن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أرسل مندوباً من قبله يمتحن الأسرى حتى لا يفدي منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل إلى نهايته.

صفات الواثق:

كان الواثق كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعطفاً على أهل بيته متفقداً لرعيته وكان محباً للنظر مكرماً لأهله مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع فكانت سيرته في ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلاً حاداً أكثر مما كانت في عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه.

وفاة الواثق:

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته في (٦ ذي الحجة ٢٣٢) وسنه (٣٦ سنة) وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل. ولم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافة فخلافته من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة في الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعي الترف المضني.

١٠ ـ المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع. ولد في شوال (سنة ٢٠٦) بفم الصلح ولم يكن بالمرضي عنه في حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين هما عمر بن فرج الرخجي ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسناً وكانت صكاك رزقه لا تختم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به في صحن المسجد الذي كان عمر يجلس فيه وكان الذي يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبي دؤاد.

ولما توفي الواثق ولم يكن عهد إلى أحد اجتمع كبراء الدولة: ابن أبي دؤاد القاضي